مع الأدب التحليلي

أنـــا . . .

للاستاذ على الطنطاوى

— ١ —

... قال لى أهلى : لقد جئت إلى هذه الدنيا عارياً بلا أسنان ، لا تحسن النطق ، ولا تعرف شيئاً ... فضحكت ولم أصدق ، فأعادوا ذلك على ، وألقوه كأنه قضية مسلمة وأمر واضح لا يحتمل الشك ، وعجبوا منى حين أكذبه وأرده ... ولكنى بقيت على رأيى الأول ، لم أستطع مطلقاً أن أصدق ما يقولون ، لأنى أعرف بنفسى منهم ، ولأنى أذكر ماضى كله : أذكر انى فتحت عينى ذات يوم فجأة ونظرت ... فوجدت نفسى ، ورأيت أن لى أسناناً وعلى ثياباً ، وبى قدرة على المشى والنطق ، ورأيتنى شخصاً مستقلا عن أبى وأمى وسائر أهلى ، أحب أشياء لا يحبها أحد منهم ، وأكره أشياء لا يكرهونها ، ولا يميزنى منهم إلا أنى كالطبعة المختصرة من الكتاب ، فيها كل الأبواب والفصول بيد أنها موجزة و ... بالقطع الصغير ، ...

أفيعقل أن أكون موجوداً قبل ذلك اليوم ، وأنا لا أعرف نفسى ؟

مستحيل !

واستقر فى ذهنى من يومئذ ، أنى ولدت وأنا فى الرابعة من عمرى ! !

— ٢ —

وصرت أرى هذا الطفل دائما ، أبصر صورته فى المرآة وأسمع صوته باذنى ، وأصغى إلى حديث أمى عنه بشغف وسرور ، فكنت أشعر بميل غريب اليه ، حتى أنى لأعترف الآن بانه كان أحب إلى من أبى ، التى لم أكن أعدل بها أحداً ولا أقبل كنوز الأرض بدلا من امتصاص ثديها والنوم على صدرها ...

ذلك الطفل الباسم ، ذو العينين السوداوين ، والشعر ... يا للأسف ! انى لا أستطيع أن أتخيل شعره ، لقد محيت صورته من ذاكرتى ، لقد اختفى من الدنيا منذ ربع قرن ، لقد ذهب الى حيث لا أدرى ؟ فهل كنت أنا ذلك الطفل ؟ هل تجيء يده الصغيرة الغضة فى يدى الخشنة التى أخط بها هذا المقال ؟ فأين ذهب إذن ؟ ومن أين جئت أنا ؟ ... انى لست ذلك الطفل ولست غيره ... فكيف يعقل هذا ؟

هذا يحيرنى دائما ، ولا أعرف له حلا ، بل ان مجرد التفكير فيه يدفعنى الى الجنون ...

— ٣ —

ونظرت يوما من الأيام - فاذا فى مكان ذلك الطفل اللاهى اللاعب - العابث بكل شىء ، الذى يحطم كل ما يصل اليه ، ويقبض على الجمرة المشتعلة بيده كما يقبض على البرتقالة الحمراء ، ويعبث بلحية القاضى إذا هو بلغها ، كما يعبث بشعر الهرة ... إذ أنى مكانه تلميذ يقرأ مكرهاً ، ويكتب مضطراً ويحمل هم المدرسة التى يذهب اليها كل يوم كالذى يساق إلى الموت ، لا يعرف لوجوده فيها معنى ، ولا يدرى فيم يدع عطف أمه ، والأنس باخوته ، ولم يترك بيته وما فيه من الدفء فى الشتاء ، والظل فى الصيف ، ليذهب إلى هذه الدار التى يحشد فيها الأطفال الأبرياء المساكين ، لتحشى أدمغتهم بمسائل لا يدركون معناها ، وشروح لا يعرفون مغزاها ، وتنال من أبشارهم وظهورهم عصا المعلم الغليظة ، وتقذى عيونهم برؤية طلعته البغيضة ، لا المعلم يبسم لهم ، ويدعوهم إلى حبه ، ولا أهلوهم يستمعون شكواهم وينصفونهم ... لقد كان فى هذه المدرسة كالمحكوم عليه بالسجن ظلماً ...

يا لهذا التلميذ البائس الذى لم يكد يفتح عينيه على الدنيا حتى أبصر الشقاء والألم . لقد مات كمداً ، ومضى مسرعاً فى طريق الفناء ... مسكين ... إنه لم يكن إلا أنا ، أنا الذى ولدت ومت مائة مرة ، حتى صرت الآن ... (أنا)

— ٤ —

وكان يوم آخر ، فاذا (الفلم) ينكشف هذه المرة عن منظر جديد : اختفى التلميذ الجميل ، ذو السراويل القصيرة ، والقميص الأحمر ، والحقيبة الزرقاء الصغيرة ، وذهب بجسمه ونفسه وميوله وأفكاره ، وظهر الشاب الحليق الوجه ، ذو (الربطة) الطويلة ، والحقيبة السوداء الواسعة ... ظهر في الثانوية طالباً متحمساً ، كأنما ركبت أعصابه من الدينامیت ، وصنع فمه على مثال فوهات الرشاشات ، فلا يكاد يقع في المدرسة حادث ، أو تقوم في البلد ضجة ، إلا انفجرَ الديناميت وانطلق الرشاش ، وقام في الطلاب خطيبا ثائراً مثيراً ، فخطموا الباب وخرجوا ... كان ينتقم بهياجه وثورته لذلك التلميذ الهادىء الحيي المظلوم ... ولكن الامتحان لم يلبث أن كشر له عن أنيابه وجاء ينتقم منه ..

هذه هي البكالوريا . فتهيأ لها . إن مستقبلك معلق عليها ... ولم يكن قد فكر في المستقبل . أو حسب له حساباً فلما سمع به وقف وتردد وكبح من جماح نفسه ... يجب أن يضمن المستقبل . ليصل إلى آماله . آماله الكبار التي كانت تملأ نفسه ولا يشك في بلوغها ... وكان قد بدأ ينشر في جرائد البلد فهو يجب أن يكون كاتباً كبيراً منتجاً يخدم بقلمه وطنه . ويدافع به عن الحق والفضيلة . ويقاتل به خصومها وأعداءها ويساهم في تحرير وطنه . ويكون له في (الاصلاح الشعبي) أثر يذكر . فليسع إذن لنيل الشهادة ، فانها تبلغه كل أمل . وتوصله إلى أبعد غاية . إن الدنيا كلها ترتقب نجاحه في (البكالوريا) . فاذا نجح فتحت له الأرض كنوزها . وحمله الناس على أعناقهم إلى سدة المجد . وقاموا بين يديه قيام الخدم بين أيدي الملوك ...

تلك كانت أحلام الصبا ... فيا رحمة الله على عهد الصبا !

— ٥ —

حرم الشاب على نفسه كل متعة من متع الدنيا ، فلا نزهة ولا راحة ، ولا حظ له في النوم العميق ، ولا الطعام الهنيء ولا شغل إلا شغل المدرسة ، حبس نفسه بين كتبه ودفاتره يقرأ آناء الليل وأطراف النهار ، ينتقل من هذيان الأدباء الى طلسمات الرياضيين والعلماء ، وحساب الجيب والمماس ، الى شعوذات الطبيعيين وأصحاب الكيمياء ، ودرس الملح والحامض والضياء والكهرباء ، إلى خرافات الفلكيين وجغرافية السماء ، يدس هذا الهراء كله في دماغه ليصبه يوم الامتحان في ورقة الفحص ، ثم يلقيه في مكانه ، ويخرج من المدرسة فارغ الرأس كما دخلها أول مرة ...

كان يخشى أن يثأر منه المدرسون الذين جرعهم الصاب وسقاهم الحنظل باعتراضاته ومناقشاته وثوراته فيسقطوه في الامتحان ، فجد كل الجد ، ولم يدع في كتب المدرسة حاشية إلا حشاها في رأسه ، ولا تعليقة إلا علقها في ذاكرته ، ثم دخل الامتحان بعقل من سطوح وأجسام ، وخطوط وأرقام ، وخرافات وأوهام ، فنجح أعظم نجاح ...

وهل ينجح في الامتحان إلا من حفظ ولم يفهم ؟ وهل تدل هذه الامتحانات إلا على قوة الذاكرة ، وشدة الحفظ وإتقان المنهج المقرر ؟

* * *

نجح ، فوثب فرحا ، وتهيأ لخوض معركة الحياة ، فقالوا له : مهلا ! قال : ماذا ؟ قالوا : لابد من شهادة عالية . إن المستقبل لا يضمن إلا بشهادة عالية !

قال : ويحكم ! وهل يبنى المستقبل على (الورق) ؟

وانطلق يلعن هذا المستقبل ، الذي حرمه عبث الطفولة ومتعة الشباب ، ونغص عليه حياته ، ولم يتركه يستريح إلى حاضره يوما واحداً ، كان أبداً يدفعه إلى الأمام ، فيعدو كالفرس المحموم ، فيتعب من العدو ، ولا يصل إلى منزل !

— ٦ —

راح الشاب يدرس الحقوق لينال الشهادة ، ويضمن المستقبل ، ويشتغل بالأدب ، ليستجيب للرغبة ، ويحظى بالمتعة ويعمل في الجريدة ، ليضمن العيش ، ويعول الأسرة ... واستمر على ذلك حتى نال (الليسانس) فربح بقربه من الأدب البعد عن الناس ، والجهل بالحياة ، وكسب بميله الأدبي وطبعه المستوحش ، وجهله بالحياة ، خصومة الناس ، ومضادة الكبراء وعداوة المال ...

— ٧ —

نزل الشاب الى ميدان الحياة ، برأس مترع بالعلوم ، والمبادىء السامية ، ويد مثقلة بالشهادة الابتدائية والثانوية والعالية ، وجيب خاوٍ خالٍ .

فلم تكن إلا جولة واحدة ، حتى ولى منهزما !

* * *

ذلك لأن سلاحه ، من (طراز قديم) لم يعد يصلح اليوم فى معركة الحياة !

ولقد خدعته المدرسة ، وكذبت عليه ، وصورت له الحياة على غير حقيقتها :

قالت له المدرسة : العلم خير من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال ، فرأى أن المال فى الحياة خير من العلم ، العلم لا ينال إلا بالمال ، فلو أن شابا كان أذكى الناس ، وأنبه الناس ، وكان مفلساً لا يملك أجور المدرسة ، وأثمان الكتب والثياب ، لما قبل فى جامعة ولا حصل علما — والعلم لا يثمر إلا بالمال ، فلو أن أعلم أهل الأرض ، كان مفلسا ، يفكر فى خبزه من أين يأتى به ، وبيته كيف يستأجره ، لما بقى له عقل يفكر ، وذكاء ينتج ، ورأى أن أصحاب الأموال الجاهلين ، تبيحهم الحياة أجمل ما تملك من متع ولذائذ ومجد وجاه ، والعلماء الفقراء محرومون من كل شيء .

نعم إن المدرسة كانت تكذب عليه !

وقالت له المدرسة : « الأخلاق أساس النجاح » ، وضرب له المعلم مثلا سيئاً طلابا لا أخلاق لهم ولا عفاف . وضرب له مثلا عالياً طلاباً كانوا نموذج الطهر والاستقامة والشرف ، فرأى أن الأولين قد بلغوا أعلى المراتب وأسمى المناصب والآخرين تحت تحت ... على العتبة ...

فعلم أن المدرسة كانت تكذب عليه !

وقالت له المدرسة : إن الحق فوق القوة . القوة للحق وليس الحق للقوة ، فآمن بذلك وصدقه ، وتسلح بسلاح الحق ، فما راعه إلا اللص يضع مسدسه فى صدغه يطلب ماله وثيابه ، فألقى عليه محاضرة فى الحق ، جمع فيها كل ما تعلمه من أساتيذه ، وأضاف اليه ما انشق عنه ذهنه فرد عليها اللص بقهقهة مروعة ... وذهب بأمواله وثيابه ورجع هو عارياً .

لم يبق له إلا فكرة سخيفة لا تسمن ولا تغنى من جوع ولا تنجى من برد ...

ورفع شكواه إلى القاضى ، فلم ير عند القاضى حقا يقهر القوة ، ولكن وجد عنده قوة تصنع الحق ، وجدقوة الجنود ، فأين يبقى الحق اذا ثار اللصوص على الجند أو فتكوا بهم ؟

هذه هى سنة الحياة ، وليس على الحياة ذنب ، فهى سافرة لم تستتر ولم تخدع أحدا عن نفسها ، ولكن الذنب على الآدباء والمدرسين الذين وضعوا عيونهم فى أوراقهم ، وحبسوا أنفسهم فى مكاتبهم ، وأرادوا أن يدرسوا الحياة فلم يفهموا منها شيئاً ...

— ٨ —

وجلس الشاب (الليسانسيه فى الحقوق) يدون آراءه تلك فى كتاب ، فلما انتهى منه حمله إلى الناشر ، وكله زهو وإعجاب بنفسه ... فقلبه الناشر العامى وصفحه ، فلما رأى اسم صاحبنا عليه لوى شفتيه ، وقوس حاجبيه ، وقال له :

ـ إن الناس لا يقرءون الآن ما تكتب ، ومتى صرت (فى المستقبل) كاتباً مشهوراً فنشر لك آثارك

فخرج متعثراً بأذيال الخيبة ... يلعن المستقبل لعناً

* * *

ما هو هذا المستقبل ؟ وهل اقتربت منه شبراً واحداً وأنا أركض وراءه منذ سبعة وعشرين عاما ؟ فمتى أصل اليه ؟ وأين هو ؟ أهو فى العام الآتى ، أهو فيما بعد خمس سنين ؟ وهل يبقى مستقبلا إذا أنا بلغته أم يصبح حاضرا ، ويكون على أن أبلغ مستقبلا آخر ؟ .. أيكون مستقبلى القبر ؟ لقد طوفت فى الآفاق ، وشرقت وغربت ، وأنجدت وأعرقت ... فما رجعت إلا بالخيبة والتعب والافلاس . فأين أجد الهدوء والراحة من هموم العيش ، حتى أنصرف إلى ما خلقت له من الدرس والمطالعة والكتابة والتأليف ؟

* * *

وذهب الشاب (الليسانسيه فى الحقوق) يفتش عن الخبز فلم يجده عند ناشر الكتاب ، ولا فى إدارة الجريدة ، ولا فى

مكتب المحامى ولم يجده إلا فى مدرسة القرية ، فصار (معلم صبيان) فيها ، يقرئهم الف باء ، ثم ارتقت به الحال قليلا ، فصار يدرس سير الأدباء ، واشعار الشعراء ... يكد ويتعب ، فى الليل والنهار يحمل آلام الغربة ، وعناء العمل ، ثم لا ينتج أثراً أدبياً ، ولا يفيد علماً ، ولا يحفظ فى جيبه درهما واحداً ...

إنه يشتغل من أجل المستقبل ... ...

— ٩ —

أين ذلك الطفل الذى كان يكره المدرسة ، ويبغض المعلم القاسى - من هذا المعلم الفظ ، الذى يرهق الأطفال ويهز عصاه فى وجوههم ، ويقرع بها جنوبهم ... من يستطيع ان يتصور ان هذا هو ذلك ؟ وأى شبه بينهما ؟ انهما مختلفان فى الجسم والشكل والطبائع والميول ، فلن يكونا شخصاً واحداً !

أين ذلك الطالب المتحمس الذى كان يقود الطلاب الى المظاهرات ، ويخطب فى المساجد والمجامع والاسواق ؟ من هذا المدرس الخامل الذى يلقى دروس الأدب على هؤلاء الطلاب ، ويبدو فيهم كشيخ هم فى الثمانين ؟ هل هما شخص واحد ؟

ان ذلك الطالب لو رأى هذا المدرس لأبغضه وكرهه ولما تردد فى البطش به !

وأين ذلك الشاب الذى تفيض نفسه بالآمال الكبار ؟ من هذا اليائس القانط الذى لم يعد يامل فى شىء ، لأنه جرب فلم يصل الى شىء ؟

— ١٠ —

وبعد . فلم أفكر فى هذا ؟ إننى لا أدرى من أنا ، ولا أعرف كيف وجدت ، ولا أعلم ماهى صلتى بذلك الطفل الذى نسيت حتى صورة وجهه ، وذلك التلميذ الذى لم أعد أعرفه إلا بالتخيل ، وذلك الطالب الذى أحبه وأتشوق اليه ، وذلك المعلم الذى أرثى له وأشفق عليه ؟

هل أنا كل هؤلاء ؟ وماذا بعد ؟

يالله ! إنى أحس كأنى جننت حقاً ؟ !

(بغداد) **على الطنطاوى**

تحيـــة للرافعى

للأستاذ منصور فهمى بك

مات مصطفى صادق الرافعى ، وما لقيته إلا مرات قليلة قد لا تتجاوز أصابع اليد عدا ، ولم ترتبط بينى وبينه عقدة الصداقة الخاصة التى طالما يكون من شانها أن تؤلف بين قلوب الناس على الأنس والمودة فى الحياة ، وطالما يكون من شأنها فى الممات أن تؤوى الأسى فى القلوب .

على أنه إذا كان قد قل لقائى بالرافعى فى الحياة ، ولم تربطنى به علاقة وثيقة من حقها أن تدفع القلم فى سبيل الرثاء فان فى حق الوفاء لما قدم الرافعى من خير متسعاً يفسح لقلمى ولغيره من الأقلام الوفية أن تذكر ذلك الراحل العظيم .

وعظمة الرافعى التى أنوه بها الآن على عجل إنما مرجعها اتصاله الوثيق بتراثنا الأدبى القديم دون غيره فنهل من شرابه العذب ، وتغذى من خلاصاته القوية الصالحة ، فاذا بها تتمثل فى أسلوبه ، وتتغلغل فى أدبه وتهذيبه ، وتتمازج فى تفكيره وتعبيره ، وتندمج فى تقديره وتدبيره ، فاستطاع أن يشق للأدب القديم التليد ، سبيله فى الأدب الحديث الغتيد .

فاى إنسان يرى فى التراث الماضى نبل هذا التراث ولا يألم حين يفتقد حارساً يقظاً لهذا التراث وداعياً له علما ، ومعرفاً به حكيما ؟ وأى وريث لثقافة العرب لا يجزع حين يموت أديب عربى كبير كان يعرض فى أدبه للخلف ، جميل ما جادت به نفوس السلف ؟ وأى أسف لا يستولى على النفوس بموت الرافعى النابغة الأديب حين يمر على الخاطر أن الناس قد فتنوا بالحاضر ، فنسوا وعقوا محامد الغابر ؟

وإذا كان من حق الآثار الصالحة أن تبعث من قبورها ، أفلا يحق على الناس أن يأسفوا على من كان يعمل على نشرها من مراقدها ؟

وا أسفاً على الرافعى ، ثم وا أسفاً على الرافعى !

فإلى الأدباء إذن وإلى الشعراء ، وإلى آل الرافعى جميل العزاء ، وعليهم جميعاً للرافعى الأديب الكبير بعد ذلك حق الوفاء .

منصور فهمى